التضمين في التراث النقدي والبلاغي

دراسة وصفية فنية من وجهة نظر القدماء والمحدثين

د.حسين محمد البطاينة أستاذ مشارك باللغة العربية وآدابها
د. عبير عبيد ارحيل الشبيل أستاذ مساعد باللغة العربية وآدابها
جامعة البلقاء التطبيقية – كلية اربد الجامعية – الأردن

الملخّص

يهدف البحث في " باب التضمين " الذي تعهده الدرس اللغوي والنقدي والبلاغي بالمعالجة والتحليل ، إلى محاولة وصف هذا الباب، الماثل في مصطلح"التضمين" من زوايا ثلاثة ، وهي كالآتي :

–مفهوم هذا المصطلح لدى الدرس اللغوي بعامة ، والدرس النقدي والبلاغي بخاصة .

–تداخل هذا المصطلح مع غيره من المصطلحات ، وخلط الدارسين بينها .

–محاولة توجيه تلك التداخلات بغية التفريق بينها ، وتحديد مجال استخدام كل منها .

ويخلص البحث إلى بعض الحقائق التي تدعو الباحثين في هذا الباب، إلى إعادة النظر في استخداماته البحثيّة، قديما وحديثا، إعادة علّها يفيد منها الدرس اللغوي والنقدي والبلاغي الحديث.

التضمين:

تطرق العلماء البلاغيون إلى عدة تعريفات للتضمين سواء أكانت اصطلاحية أو لغوية وسنعرض المعنى الاصطلاحي أولاً:

التضمين هو المعنى المضمر في اللفظ المذكور، والتضمين على وجهين، تضمين توجيه البنية وتضمين توجيه العبارة، ويقال أيضاً أنه الجمع بين لفظين متشابهين في الوزن والروي، وهو تضمين الازدواج، وعرّفه بعضهم بأنه " أن يُضمن الفعل معنى فعل آخر فيجري مجراه"(١). وقد ورد التضمين في المعاجم اللغوية القديمة والحديثة تحت مادة ضَمّن، وذكر البلاغيون عدة تعريفات لغوية منها:

يقول الأزهري "قال ثعلب عن سلمه الفراء.. ضمنت يداه بمنزلة الزمانة، ورجل مضمون اليد مجنون اليد، وقوم ضمني أي زمني، ويقال ضمنت الشيئ أضمنة ضماناً فأنا ضامن، وهو مضمون". وقال الليث "كل شيء أحرز فيه شيء فقد ضمنه"(٢)، وقال الجوهري "ضمنت الشيء ضماناً به فأنا ضامن، وضمِنٌ، وضمنته الشيء تَضْميناً فَتَضَمَّنَهُ عنه مثل غرَّمه"(٣).

وقال ابن منظور "يقال ضمنت الشيء أضمنه ضماناً فأنا ضامن، وهو مضمون وضمّن الشيء الشيء أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر"(٤).

أما الفيروز أبادي فقد قال: ضمّن الشيء وبه كعلم ضماناً، فهو ضامن، وضمناً فهو ضامن، وضمين كفله وضمنته الشيء تضميناً عني غرمته فالتومته، وما جعلته في وعاء فقد ضمنه إياه"(٥)، وقال الزبيدي ضمنته تضميناً فضمنته عن أي غرمته فألزمته، وضمن الشيء الشيء إذا أودعه إياه"(٦).

وأخيراً أجمل أصحاب المعجم الوسيط في القرن الحاضر معنى ضمن فقالوا "ضمن الشيء الوعاء نحوه جعله فيه وأودعه إياه"(٧).

فالتضمين كما هو في المعاجم اللغوية السابقة يعني بصورة أو بأخرى إيداع شيء بشيئاً آخر سواء هذا الإيداع حقيقاً أو مجازياً.

وينقسم التضمين إلى قسمين معيب وغير معيب، فالمعيب لا تعلق له بعلم البديع، لأنه من علم العروض، وهو أن يكون البيت الأول لا يفهم معناه إلا بإيراد الثاني وغير المعيب معناه أن يضمن الشاعر شعره أو الناشر كلامه كلام غيره ليكون للكلام طلاوة وحلاوة بالتضمين، لا سيما إذا كان التضمين آية من كتاب الله الكريم أو فقرة من الحديث النبوي الشريف، وفي ما سبق من الكلام يشترط إذا ضمن المتكلم كلامه قرآنا وحديثاً أن لا يتعرض إلى نقص شيء من حكم الآية أو يتعرض إلى تنقيص أحد من الأنبياء، وأما إذا

ضمن كلامه تنقيص أحد دلت الآية على تعظيمه أو ضمن إشارة لحكم الآية بتنقيص أو مخالفة، فإن هذا كما يحبه نجم الدين الحلبي صاحب كتاب جوهر الكنز من الكفر.

ويعرف أحمد الهاشمي التضمين فيقول "هو أن يضمن الشاعر كلامه شعراً من مشهور شعر الغير مع التنبيه عليه أو لم يكن مشهوراً لدى علماء نقاد الشعر وذوي اللسن، وبذلك يزداد شعره حسناً[٨]"

وعرّفه بعضهم أنه إدخال الشاعر أو الناثر من كلام غيره في كلامه. كما عرّفه التبريزي تعريفاً حيث يقول "هو أن تأتي البيت لا يتم معناه إلا بالذي بعده"، ويعرفه كذلك ابن أبي الإصبع "هو تضمين كلام كثير أو بيت من الشعر"، ويعرفه الأندلسي "هو أن يذكر لفظاً مطلقاً ويراد به التعبير"، ويعرفه العز بن إسلام تعريفاً قريباً من تعريف الأندلسي وكنّى عنه "بإيقاع لفظ موقع غيره لتضمينه معناه"[٩].

بينما يفرع السيوطي التضمين ويطلقه على عدة أمور حيث قال إن عنوان التضمين يطلق على أشياء:

"أحدهما: إيقاع لفظ موقع غيره لتضمينه معناه.
الثاني: حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم وهو عبارة عنه.
الثالث: تعلق ما بعد الفاصلة بها.
الرابع: إدراج كلام في أثناء الكلام لقصد التأكيد للمعنى أو ترتيب النظم"[١٠].

والتضمين قليل في كتاب الله عزّ وجل لم يجد البلاغيون شيء منه في القرآن إلا القليل، وعرّفه بعضهم بأنه تمثل البيت من الشعر قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب:

يا خاضب الشيب والأيام تظهره ... هذا شباب لعمر الله مصنوع
أذكرتني قول ذي لب وتجوبه ... في مثاه لك تأديب وتقريع
إن الجديد إذا ما زيد في خلقٍ ... تبين الناس أن الثوب مرقوع

ومن الشعراء من يقلب البيت ويضمنه معكوساً مثل قول العباس بن الوليد بن عبد الملك:

لقـــد أنكرتنـــي إنكـــار خـــوف يضـمن حشـاك عـن شـمتي وذحلـي
كقـول المـرء عمـرو فـي القـوافي لقـيس حـين خـالف كـل عـذل
عـذيرك مـن خليلـك مـن مـراد أُريـد حياتـه ويريـد قتلـي

والبيت المضمن لعمرو بن معد كرب الزبيدي يقوله لابن أخته قيس ابن زهير، وقد كان بينهما شديد وعداوة عظيمة وحقيقته في شعر عمرو:

أُريـد حياتـه ويريـد قتلـي عـذيرك مـن خليلـك مـن مـراد

ومن التضمين ما يجمع فيه الشاعر قسمين من وزنين، كقول علي بن الجهم يعرض بفضل الشاعرة جارية وبنان المغني وكانا يتعاشقان.... بنان:

اسـمعي أو خبرينـا يـا ديـار الظاعنينـا

وغنيت هي كالمجاوبة له عما يقول:

ألا جيـت عنـا يـا مـدينا وهـل بـأس بقـول مسـلمينا

"ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة، ويشير به إشارة فيأتي به كأنه نظم الإخبار أو شبيه به"(١١)، ويعرّفه أسامة بن المنقذ في كتابه "البديع في نقد الشعر" فيقول " هو أن يتضمن البيت كلمات من بيت آخر مثل قول عنترة العبسي:

إذ يتقـون مـن الأسـنه لـم أضـم عنهـا ولكـن تضـايق مقـدمي

ومتضمنه مسلم بن الوليد فقال:

ولقـد سـما بـالحرمي، فلـم يقـل يـوم الـوغى، أي تضـايق مقـدم

ويقول العلماء البلاغيون أن أحسنَ وجوه التضمين أن يزيد المضمن على شعره بنكتة كالتورية أو التشبيه، والتضمين تتعددية وجهات النظر بين حسن يكسب الكلام حلاوة، ويضفي عليه جمالاً وبين معيب عند بعض البلاغيين، وقد عرف البلاغيون كلا منهما، فالتضمين الحسن: هو التضمين الذي يكتسب به الكلام حلاوة مثل تضمين الآيات القرآنية والأخبار، ويرد التضمين الحسن يكون على شكلين، أما التضمين الكلي أو التضمين

الجزئي، فالتضمين الكلي أن يذكر المضمن الآية أو الخبر كاملاً، والتضمين الجزئي أن يضمن الشاعر بعض الآية أو الخبر في ضمن.

الكلام وبذلك يكون التضمين جزءاً منه، أما التضمين المعيب عند مجموعة من البلاغيين فهو "تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنشور على أن يكون الأول منهما مسند إلى الثاني فلا يقوم الأول بنفسه لا يتم معناه إلا التالي، وهذا هو المعدود من عيوب الشعر"(١٢). والضرب الآخر من التضمين، هو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نشره كلاماً آخر لغيره قاصدا الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر ذلك التضمين يكون معنى البيت كاملاً فهو لا يحتاج إلى بيت لإتمام معناه، وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل كما يقول جحظة:

قُمْ فاسقها يا غلام وغني ذهب الذين يعاش في أكفافهم

فلو لم يقل في هذا البيت ذهب الذين يعاش في أكفافهم لكان المعنى تاماً في الشطر الأول من البيت لا يحتاج إلى شيء آخر، وقد استعمل هذا الضرب الخطيب عبد الرحمن بن نباتة – رحمه الله– فمن ذلك قوله في بعض خطبه، وهو يقول "فيا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون، فما لكم منه لا تشفقون، فهو رب السماء والأرض آية لحق مثل ما أنكم تنطقون"(١٣).

والتضمين كما يُعرّفه أشرف الدين الطيبي في كتابه "البيان في البيان"، وبعد ذلك يفضله إلى عدة ضروب فيقول "التضمين هو أن يضمن الشاعر من شعر الغير والشرط أحداهما: أن يكون المضمن به تمام البيت، قال ابن العميد:

وصاحب كنت مضبوطاً بصحبته فاليوم غادرني فردا لا سكن
هبت له ريح إقبال فطار بها نحو السرور والحاني إلى الحزن
كأنه كان منصوباً على الأرض ولم يكن من ضروب الشعر أنشدني
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكرها من كان بالفهم في المنزل الحسن

وثانيهما: أن يكون المضمن به مصراعاً، يقول الشاعر:

قـــد قلـــت لمـــا أطلعـــت مضـــابه حـــول الســـفتق الفضـــي روضـــة أســـى
أعـــذاره الســـاري العجـــول ترفقـــا مـــا فـــي وقوفـــك ســـاعة فـــي بـــأس

فقد ضمن الشاعر المصراع الأخير من قول أبي تمام:

مـــا فـــي وقوفـــك ســـاعة مـــن بـــأس لقضـــــي زمـــــام الأربـــــع الأرداس

وثالثهما أن يضمن بين الصراع، يقول الشاعر:

إذا مـــررت بـــدار كنـــت ســـاكنها وجـدت فـي القلـب مـن ذكـراك أحزانـا
وإن حللـــت مكانـــاً كـــان يجمعنـــا ســـالت دمـــوعي زرافـــات ووجـــدانا[١٤]

وقد فرّق البلاغيون بين الاقتباس والتضمين، إذ إن الاقتباس يكون من القرآن والحديث، بينما التضمين يكون من كلام آخر كالنشر والشعر بخاصة، أما التضمين فيختلف عن الاقتباس بأنه لا يكون من القرآن ولا الحديث، بل يكون من كلام آخر غيرها، كما أنه لا يكون في النثر بل في الشعر خاصة[١٥]، وقد عرّفوه بقولهم "أن يضمن الشاعر شيئاً من نظم غيره مع التنبه عليه إن لم يكن من الأشعار المشهورة " كما في قول القاضي الفاضل مادحاً:

أيـــا صـــالح الآمـــال كـــم قلـــت مثنيـــاً إذا نحـــــن أثنينـــــا عليـــــك بصـــــالح

فقد ضمّن بيته شطراً من بيت أبي نواس:

إذا نحـــــن أثنينـــــا عليـــــك بصـــــالح فأنـــت كمـــا تثنـــي وفـــوق الـــذي تثنـــي

وهذا وقد يقضي اختلاف المعنى أن يبدل الشاعر ويغير تغيراً يسيراً في ألفاظ التضمين[١٦]، وذلك مثل قول شاعراً في الوصف:

أقـــول لمعشـــر غلطـــوا وغضـــوا عـــن الشـــيخ الرشـــيد وأنكـــروه
هـــو الله جـــلا وطلـــع الثنايـــا متـــى يضـــع العمامـــة تعرفـــوه

فالبيت الثاني من قول سحيم:

أنـــا ابـــن جـــلا وطـــلاع الثنايـــا متـــى يضـــع العمامـــة تعرفـــوه

وقد غير في ألفاظه تغييراً يسيراً اقتضاه اختلاف المعنى في البيتين إذ جلا في البيت الأول صفة للشعر قال شعر جلا أي زال، وفي الثاني صفة للرجل يقال رحلاً جلا.

بمعنى كشف الأمور وأوضاحها، والثنايا في البيت الأول المراد بها مقدم الأسنان، لأنها كانت بارزة وفي الثاني تعني الطرق الصعبة.

والتضمين إذا قل بأن كان مصراعاً فما دونه سمي رفواً أو إبداعا، وإن زاد عن مصراع سمي استعانة(١٧).

ويعمد الأدباء إلى النص القرآني أو إلى الحديث النبوي أو إلى النشر الجيد فيضمنه، فإن كان التضمين من القرآن أو الحديث فينبغي على الأديب بأن يغير منها تغييراً كثيراً، أو يغطي أنه منها وإلا كان من الاقتباس، كما أنه قد يعمد إلى النظام فينثره نثراً جديداً.

وقد أجاز البلاغيون تغيير اللفظ المقتبس بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير، والاقتباس ثلاثة أقسام:

١- مقبول: وهو ما كان في الخطب.
٢- مباح: وهو ما يكون في الغزل والرسائل والقصص.
٣- مردود: وهو ما كان في الهزل(١٨).

وقد شهد المصطلح تطوراً واضحاً في النقد الحديث بعد إن تحول إلى اسم التناص بمعنى التداخل النصي، أي الاستفادة من الطاقات الفنية التي تحملها فلذة شعرية، خاصة في محاولة توظيفها داخل نسيج شعري جديد وتتخلى أهمية اكتشاف التداخل النصي لا لقصد التأكيد للمعنى أو ترتيب النظم فحسب، بل في تخليق رؤية أعمق تأثيراً أو أبعد مدى وأكثر ثراء، وليس من دليل على ذلك سوى أنه فناً من أهم فنون الشعر العربي الذي يقوم أساساً على ذلك التداخل النصي أو التضمين.

والتضمين عند أحمد الحوفي ليس معيب، لأنه كما يقول "إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني فليس ذلك سبباً يوجب عيباً، إذ لا فرق من البيتين من الشعر

في تعلق أحدهما الآخر وبيّن الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق أحدهما بالأخرى؛ لأنّ الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ دل على معنى فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير"[١٩].

*** التضمين في العروض:**

عدّ العلماء البلاغيون التضمين في العروض من عيوب القوافي "ومثيل أنه أحد عيوب القوافي الخمس وليس فيه أقبح من قول النابغة:

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ أني
شهدت لهم مواطن صالحات أتينهم بحسن السود مني[٢٠].

ويأخذ التضمين في علم العروض معنى مختلفاً لمعناه في عملي البديع والبيان، فعرّفه الأزهري "المضمن من الشعر ما لم يتم معنى قوافيه إلا بالبيت الذي يليه، وقال الجوهري "المضمّن من قبلها بما بعدها"[٢١]، ولا نجد خلافاً من علماء النقد والعروض حول مفهوم التضمين العروضي لكن الخلاف وقع بينهم حول ما إذا كان التضمين بالمفهوم السابق عيباً أو لا والحاصل أو أغلبية النقاد القدماء يرونه عيباً؛ وذلك بسبب نظرتهم بأن البيت وحدة تامة تؤدي معناً مستقلاً دون أن يتعلق البيت بما بعده.

وتزعم الأخفش وجهة نظر أخرى، وانتصر لها ابن جني من بعده إذ يرى الأخفش أن التضمين العروضي بالمفهوم الذي تم عرضه سابقاً لا يعد عيباً، ويبدو أن المحدثين من الشعراء قد وافقوا رأي الأقلية من القدماء في أن التضمين ليس عيباً؛ لأن مبنى القصيدة عند المحدثين قائم على الوحدة الموضوعية لأعلى وحدة البيت كما يرى القدماء.

*** التضمين في الأصوات:**

وتطرق العلماء البلاغيون للتضمين في الأصوات حيث عرفه ابن منظور "المضمن من الأصوات ما لا يستطاع الوقوف عليه حتى يوصل بآخر" ويُعرّفه الأزهري "المضمن من الأصوات أن يقول الإنسان قف فلا بإسهام الكلام إلى الحركة"(٢٢).

*** التضمين في النثر:**

هي أن يضمن الإنسان كلامه بعض النثر والأمثال العربية أو المقولات المعرفية.

*** التضمين في الشعر:**

وهو البيت المقترح الذي لا يكتمل معناه إلا بالبيت الذي يليه، وعرّفه أحمد بن علي العروضي، "هو بيت يبنى على الكلام يكون معناه في بيت يتلوه من بعد مقتضياً له، كما عرّف التضمين في الشعر بأنه اجتلاب بيت من قصيدة لأخرى على سبيل المعرفة"(٢٣).

*** توظيف التضمين في الشعر:**

وظف الشعراء والأدباء التضمين في الشعر وفي النثر، وقد بحث في إمكانية ذلك ومدى تحققه ومدى صحته سواء أكاد التضمين لبعض الكلام أو جمعية أو التصرف فيه والتعبير فيه أو دمجه مع الإشارة إلى ذلك أو إيراد معناه سواء بقلب أو نقل لتمام العبارة أو لإخفاء فائدة وجمالية أكثر للبيت أو النص، يقول القرطاجني "إن ما استند فيه بحث الفكر إلى كلام جرى في نظم أو نشر أو تاريخ أو حديث أو مثل فيبحث الخاطر فيما يستند إليه من ذلك بما يسوغ معه إيراد ذلك الكلام أو بعضه بنوع من التصرف أو التغيير أو التضمين فيحيل على ذلك أو تضمينه أو يدمج الإشارة إليه أو يورد معناه في عبارة أخرى على جهة قلب أو نقل إلى مكان أحق به من المكان الذي هو فيه أو ليزيد فائدة فيتممه أو يتمم به أو يحسن العبارة"(٢٤).

*** التضمين توكيد:**

ويضيف البلاغيون على التضمين بأن يدل على التأكيد عند إدراجه في الكلام يقول السيوطي "أن التضمين إدراج كلام الغير في أثناء الكلام لقصد التأكيد أو ترتيب النظم، وهذا هو النظام البديعي(٢٥).

*** التضمين والكناية:**

وعدّ بعض اللغويين التضمين بأنه لون من ألوان الكناية، وأن التضمين يرتبط بالكناية في علاقة وطيدة، وأن التضمين يتدرج تحت مفهوم الكناية.

*** التضمين في النحو:**

أقر النحويون بوجود التضمين في اللغة وفي فرع النحو الذي يختصون به، وأنه ركن من أركان التعليل لبعض المسائل النحوية، وتتجلى وظيفة النحاة يقر سبب قيام المادة اللغوية مكان تلك بحيث أدت وظيفتها في السياق الحديث وعرفه النحاة "إشراب لفظ معنى آخر بحيث تؤدي الكلمة مؤدى كلمتين".

*** التضمين في المشتقات:**

يرى الكتاب أحمد حسن في كتابه التضمين في العربية أن المشتقات تتفق من قريب أو بعيد مع معنى التضمين أو على الأقل مع وظيفته في النظام النحوي، وبالتالي فإن دائرة التضمين تتسع لتشمل هذه المشتقات.

*** ألوان من التضمين(٢٦):**

١- تضمين القرآن الكريم ما ورد في التوراة والإنجيل مثل قوله تعالى: (وكتب عليهم فيها أن النفس بالنفس).

٢- التضمين بعد بعد التحرير، وهو أن يصرف المضمن وجه البيت المضمن عن معنى قائله إلى معناه هو مثل صرف الشاعر قول النابغة في صفة النحو:

تجلـــو بقـــادمتي حمامـــة أيكـــة يـــرداً أســـن لتائـــه بالأثمـــد
كـــالإقحوان عـــزاة عـــين ســـمائه جفـــت أعاليـــه وأســـفله نـــدي

٣- التضمين بعد التقسيم مثل قول الشاعر:

خلقـــت علـــى بـــاب الأميـــر كـــأنني قفـا نبـكِ مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل
إذ جئـــت أشـــكي طـــول ضـــيق وفاقـــة يقولـــون لا نهلـــك أســـى وتجمـــل

٤- التضمين الإشاري:

وهو التضمين الذي يحيل الشاعر فيه، ويشير إشارة فيأتي به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به، وذلك مثل قول أبي تمام:

لعمـرو مـع الرمضـاء والنـار تلتظـى أرق وأحلـى منـك فـي سـاعة الكـرب

أراد المضروب به المثل:

المســـتجير بعمـــرو عنـــد كربتـــه كالمســـتجيرِ مـــن الرمضـــاء بالنـــارِ

*** التضمين في ميزان النقد:**

وضع البلاغيون التضمين في ميزان نقدي، وأقروا بوزنه الذي يحدثه بسبب إضافة جمالية عالية للنص ويكون حسناً ويكون قبيحاً مثل قول الشاعر:

كان القلب ليلة مثل يعذي بليلى العامرية أو يراح
قطاة غيرها سترك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلم يتم المعنى في البيت الأول حتى أتمه في البيت الثاني، وهذا هو النوع القبيح.

وقد ورد التضمين في قسمين من أقسام البلاغة العربية هما: البيان والبديع ويختص التضمين البياني بتضمين لفظ آخر، ويختص التضمين البديعي بأخذ شاعر من شاعر آخر، وقد تناول العلماء البلاغيون التضمين البياني من زوايا متعددة من حيث مفهومه وعلاقته بالحقيقة والمجاز والكناية ثم من كونه سماعياً أو قياسياً، وعرفه الرُّماني "تضمين الكلام هو حصول معنى في من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه والتضمين على وجهين أحدهما يدل على الكلام دلالة الإخبار، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس[٢٧]"، وقال

الزمخشري في تعريف التضمين " من شأنهم تضمين الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه مع إرادة معنى المتضمن، وقال إن الغرض من التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى".

وعرّفه ابن هشام "قد يشربون لفظاً معنى لفظ آخر فيعطونه حكمة، ويسمى ذلك تضميناً وفائدته أن تؤدي الكلمة مؤدى كلمتين" وقال سعد الدين النقتاذاني بن كمال باشا "التضمين أن يقصد باللفظ معناه الحقيقي"(٢٨).

*** التضمين البديعي:**

من أول من اعترض مفهوم التضمين البديعي ابن المعتز حيث عرّفه بأنه "أخذ شاعر من شاعر آخر بيتاً أو دونه وتضمينه في شعره"، وعرفه ابن رشيق " هو قصدك إلى البيت من الشعر فتأتي به آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل".

*** التضمين البديعي في الميزان النقدي:**

وقد زان العلماء البلاغيون التضمين البديعي في الميزان النقدي، وتعرض لذلك ابن رشيق فوجدها تتجه باتجاهين:

الأول: موقع البيت المضمن ونظرة الشاعر الأخذ بهذا البيت.

الآخر: أن يصرف الشاعر معنى قائله إلى معناه"(٢٩).

أما ابن الأثير فقد بين أن قيمة التضمين تكمن في زيادة المعنى وتوكيده، أما حسن التضمين وأجوده عند الخطيب القزويني " هو ما زاد في البيت المضمن نكتة لاغية كالتورية والتشبيه"، أما ابن حجة الحموي فهو يوافق سابقيه على أن أحسن التضمين ذلك الذي يصرف عن معناه إلى معنى جديد.

*** آراء المحدثين في التضمين:**

وتقسم آراء المحدثين إلى قسمين هما:

أ- آراؤهم في التضمين البياني والنحوي.

ب- آراؤهم في التضمين البديعي.

أ- ونستبين من خلال هذا البحث خلافا واسعاً عند القدماء حول المفهوم لكل من التضمين البياني والتضمين النحوي، ولقد بدا التضمين لدى المحدثين وكأنه مشكلة تعاني منه اللغة العربية، وانقسموا لذلك لقسمين:

الأول: قسم يرى أنه واقع في اللغة لا محالة وأن له هدفاً وغرضا.

الثاني: أنكر وقوعه في اللغة.

أما القسم الأول قد انصب بحثهم حول تحديد مفهومه وبيان وظيفته في اللغة والبلاغة كما تحدثوا عنه من حيث كونه سماعياً أو قياسياً ومن هؤلاء الباحثين محمد الخضر حسين.

أما الشيخ الإسكندري فهو يقر وقوع التضمين في العربية بالصورة التي كررها القدماء غير أنه يضيف شرطا آخر على ما اشترطه القدماء وهو موافقة العبارة التي وقع فيها التضمين للذوق العربي.

أما الدكتور منصور فهمي فإنه يقتصر التضمين على الضرورة الشعرية والسجع ثم أخذ البحث في التضمين مأخذاً رسمياً، إذ عرض على مجمع اللغة العربية فأجازه أكثر أعضائه، واتخذوا القرار التالي بشأنه " التضمين يؤدي فعل أو ما في معناه فيعطي حكمة في التعدي واللزوم"، ويرى المجمع اللغوي أن التضمين قياسي لا سماعي" بشروط ثلاثة:

١- تحقق المناسبة بين الفعلين.

٢- وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس.

٣- ملاءمة التضمين للذوق العربي.

أما القسم الآخر فيمثله الدكتور عباس حسن والدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور حسن عواد فتمثلت آراؤهم في زاويتين:

" ١- إعادة النظر في دراسة التضمين وفق ما يقتضيه علم الدلالات الحديثة.

٢- إلغاء التضمين، لأن مبناه على فكرة الأصل والفرع وهي فكرة منطقية لم تعد في رأيهم صالحة لتفسير ظاهرة التضمين في اللغة".

والتضمين في رأي الدكتور عباس حسن لا يستخرج عن إحدى حالتين وفي غيرها الفساد اللغوي والاضطراب الهدام(٣٠).

١- إن الألفاظ التي وضعت بالتضمين قديماً منذ عصور الاستشهاد والاحتجاج اللغوي فإن استعمالها دليل على أصالة معناها الحقيقي.

٢- إن العصور المتأخرة عن عصور الاستشهاد والاحتجاج غير محتاجة إلى التضمين لاستغاثتها عنه بالمجاز والكناية وغيرها من أنواع البيان(٣١).

وقد لخص السمارائي إلى نتيجتين:

الأولى: تلخيص ما توصل إليه القدماء والمحدثين عن التضمين.

الثانية: دعوة إلى دراسة التضمين تحت باب دلالات الألفاظ من الوجه التاريخية، والنتيجة الأولى لخص فيها مذاهب ثلاثة قبلت في التضمين هي:

١- المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقي مع قطع الصلة بينها وبين الأصل.

٢- إن المادة المتضمنة قد استخدمت على الحقيقة والمجاز معاً في آن واحد.

أما النتيجة الثانية فيتقرر فيها المناداة بضرورة أن تؤرخ الألفاظ وتقيد بعصورها وبقائها(٣٢).

*** آراء المحدثين في التضمين البديعي:**

لم يختلف المحدثون حول مفهوم التضمين البديعي من حيث إنه ضرب من الأخذ المشروع للشاعر، وانصب حديثهم حول قيمته البلاغية "ويتفق الدكتور بدوي طبانه مع القدماء، وأنه ليس من الرسقة المشهورة ويرى أن التضمين البديعي دليلاً واضحاً على مهارة الأديب وسعة ثقافة ووفرة اطلاعه"(٣٣).

ويتفق مع القدماء أيضاً "أنه ليس بمقدور كل شاعر أو ناشر أن يضمن شعره أو نثره، بل ينبغي أن يكون الشاعر أو الناشر على درجة من اللباقة في الاختيار والتضمين من شعر الآخرين"(٣٤). أما الدكتور السامرائي فيرى في التضمين البديعي ضرباً من التقليد والمحاكاة ويضيف أن الشعراء الذين لجئوا إلى التضمين هم أولئك الذين حرموا الابتكار والتجديد(٣٥).

*** تتبلور وجهات نظر النقاد حول المفهوم في ثلاثة أوجه:**

١- بجمع الاقتباس والتضمين في مفهوم واحد هو التضمين ومن أشهر مؤيديه ابن الأثير.

٢- يقتصر مفهوم التضمين على أخذ شاعر من شاعر آخر وهو الرأي الغالب.

٣- يطلق على التضمين الإبداع على نحو ما رأينا عند ابن حجة الحموي.

وإزاء هذه التعريفات يسجل أحمد حسن في كتابة التضمين في العربية حقائق منها:

١- إنها تتفق على أن المعنى العام للتضمين هو إشراب لفظ معنى لفظ آخر.

٢- إن في التضمين فائدتين الأولى تختص بالمعنى، وهي التي عني بها علماء البلاغة من حيث علامتها بالحقيقة أو المجاز أو الكناية، والثانية، تختص التركيب وهي التي عني بها النحاة؛ وذلك من حيث تعدي الفعل ولزوجته ومن حيث أقرها في تعليل بعض المسائل النحوية:

٣- إن التضمين لا يقع في الأفعال وحسب، وإنما يقع في الأسماء.

٤- إن التضمين البياني لابد فيه من تقدير حال مأخوذة من الفعل الآخر ليناسب الفعل المذكور.

*** نتائج حول مفهوم التضمين:**

١- اضطراب علماء البلاغة اضطراباً واضحاً أضاع تحديد مفهوم التضمين البيان، بحيث بدت الأدلة التي قدموها غير مقنعة للباحث الذي يستقضي حقائق الأمور.

٢- بناء على ذلك فإنهم لم يستطيعوا تقديم القيمة البلاغية للتضمين مما جعل الإفادة منه غير ظاهرة.

٣- الخلط الواضح بين ما سمي بالتضمين البياني، وما سمي بالتضمين النحوي وعدم تقديم أدلة مقنعة للتفرقة بين النوعين.

*** هل يعد الشاعر المضمن أصيلاً أم مقلداً؟**

إن الحد الفاصل بحسن الأصالة والتقليد هو إذا كان الشاعر يضع نصب عينيه أنه سيكتب قصيدة ينوي أن يضمنها شيئا من شعر غيره؛ فإن هذا الفعل سيؤول بالشاعر إلى التكلف والتقليد أما ما يأتي عفواً وفي أثناء قول قصيدة أصيلة، فلذلك لا يعد تكلفا، وإنما هو من قبيل توارد الأفكار التي ترد لأي شاعر.

ويعقب الدكتور منير سلطان على التضمين ويجمله في النقاط التالية:

١- انتشر التضمين بين ربوع اللغة والعروض والنقد فأكد بذلك تجذره في التراث العربي.

٢- بالرغم من تقلب التضمين بين هذه الربوع إلا أنه حافظ على أصل مادة "ضمّن" التي تعني الاحتواء[٣٦].

٣- فرق النقاد بين السرقة والانتحال والتضمين.

٤- تجلت براعة النقاد العرب في كشف جماليات التضمين التي تركزت في زيادة الفائدة والإيجاز والتوكيد والتمثيل.

٥- لاحظوا أن التضمين ليس مقصوراً على الشعر، بل يتعداه إلى التنزيل وليس مقصوراً عليها، بل تعداها إلى التضمين في الأصوات.

٦- لاحظوا أن التضمين يأتي بأشكال مختلفة تبعاً لتنوع وجوه الإبداع الشعري والنثري.

٧- لاحظوا أن التضمين يضفي جمالاً على النص وأنه يكون حسناً ويكون قبيحاً، وأن التجانس شرط من شروط الحسن فيه.

٨- لم يكن في حسبانهم أن يفلسفوا "التضمين" وأن يخرجوا إلى آفاق أرحب من الصفة التي حصروه فيها.

*** مصطلحات انبثقت عن التضمين:**

١- الإبداع ٢- الاستعانة ٣- التمليط ٤- التوطيد

٥- الاقتباس ٦- التأسيس ٧- الرمز

*** التمثيل:**

وفي رأيي لقد اختلف كثير من النقاد والبلاغيون حول هذا الفن من فنون البيان قبل أن يتناوله البلاغيون بالتجديد والتقسيم، وأقدم شخص عرض للموضوع هو قدامة بن جعفر، ولقد مثل أن امرؤ القيس أول من ابتكره.

فعرفه قائلاً " إن يريد الشاعر إشارة إلى معنى يتضح كلاماً يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه"، وعرفه بعضهم بالمماثلة، وذلك أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة".

أما التمثيل عند ابن رشق فهو من ضروب الاستعارة قال: "هو المماثلة عند بعضهم وذلك أن تمثيل شيئاً بشيء فيه إشارة"(٣٧).

وقد عقد عبد القاهر الجرجاني فصلاً طويلاً من التشبيه والتمثيل للتفريق بينهم "فقد كان كغيره من الباحثين اللذين يجمعون أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه والقاعدة التي خرجوا بها "أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيل"(٣٨).

وأما الزمخشري وابن الأثير فإنها يجعلان التشبيه والتمثيل مترادفين، وهما في ذلك ينظرون إلى معنى اللفظ اللغوي للفظين، وقد خص السكاكي التشبيه باسم التمثيل، كأنه يريد أن يقول إن التشبيه ما كان وجهة وصفاً غير حقيقي وكان مركباً وليس من التمثيل أن يكون وجه الشبه حسيا مركباً أو عقلياً حقيقياً مفرداً، ففي هذا القول يخالف السكاكي عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أنه تمثيل لحاجته إلى التأويل والتركيب يكون في طرفين: وهو أن يقصد إلى متعددين ينتزع منها هيئتين ثم يقصد اشتراك الهيئتين في هيئة تعمها، وإنما يكون ذلك إذا كان وجه الشبه مركباً يمكن انتزاع الهيئة التي تعمها فيه(٣٩).

والتمثيل عند الخطيب القزويني وجمهور البلاغيين بعده "وهو ما كان وجه الشبه منه وصفاً منتزعاً من متعدد أي من أمرين أو أمور ويدخل في هذا الأمر عدة أقسام:

١- ما كان طرفاه مفردين

٢- ما كان طرفاه مركبين

٣- ما كان الأول مفرداً والثاني مركباً

٤- ما كان الأول مركباً والثاني غير مركب"(٤٠).

وعلى هذا في قولهم يخالفون السكاكي الذي قيد الوجه المنتزع من متعدد الذي يسمى تشبيه تمثيلي بكونه غير حقيقي، ويرى عبد القادر أن التشبيه الذي هو الأولى أن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر والصريح، وخلاصة ذلك، فإن التمثيل عند عبد القاهر: ما كان الوجه فيه عقلياً غير حقيقي من غير نظر إلى إفراد أو تركيب، وعند السكاكي ما كان الوجه فيه عقلياً غير حقيقي وهو مركباً فهو يرى ري عبد القاهر، ويضيف إليه شرط التركيب، وعند الخطيب القزويني وجمهور البلاغيين ما كان الوجه فيه مركباً بصرف النظر عن كونه حسياً أو عقلياً.

والزمخشري لا يفرق بين التشبيه والتمثيل؛ لأنه كما يبدو كان ينظر إلى معنى الوضع اللغوي فالتشبيه عنده يرادف التمثيل، ويقول الرازي "وقد حضوا التمثيل المنتزع من اجتماع أمور يتقيد البعض بالبعض باسم التمثيل"(٤١).

وقد عرّف ابن قدامة التمثيل "أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه"(٤٢).

*** أمثلة على التمثيل:**

يقول امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا التقدمى بســـهيك فـــي أعشـــار قلـــب مقتـــل

فمثل عينيها بسهي الميسر فجمع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بها عينيها ومثل قلبه بأعشار الجذور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل.

وأيضا:

أنتـــــي أقيـــــد بالمـــــأثور راحلتـــــي ولا أبـــــالي وإن كنـــــا علـــــى ســـــفر

فقوله أقيد المأثور تمثيل بديع، والمأثور هو السيف الذي فيه أثر.

*** النسخ:**

وقد أخذ هذا المصطلح من نسخ الكتاب وبدل على أخذ الكلام كلاماً تاماً بلفظه ومعناه "أما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعاً، أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب[٤٣]، وعلى ذلك ضربان:

الأول: وقوع وقوع الحافر على الحافر كقول امرؤ القيس:

وقوفـــاً بهـــا صـــحبي علـــى مطـــيهم يقولـــون لا تهلـــك أســـى وتجلـــد

وكقول طرفة:

وقوفـــاً بهـــا صـــحبي علـــى مطـــيهم يقولـــون لا تهلـــك أســـى وتجلـــد

والزمخشري لا يفرق بين التشبيه والتمثيل؛ لأنه كما يبدو كان ينظر إلى معنى الوضع اللغوي، فالتشبيه عنده يرادف التمثيل، ويقول لأنه كما يبدو كان ينظر إلى معنى الوضع اللغوي فالتشبيه عنده يرادف التمثيل، ويقول الرازي "وقد حظوا التمثيل المنتزع من

اجتماع أمور بتقيد البعض بالبعض باسم التمثيل(٤٤)، وقد عرف ابن قدامة التمثيل "أن يريد الشاعر استعارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه(٤٥).

*** أمثلة على التمثيل:**

يقول امرؤ القيس:

وما ذرفت عيناك إلا التقدمى بسهميك في أعشار قلب مقتل

فمثل عينيها بسهمي الميسر فجمع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ومثل قلبه بأعشار الجذور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل.

وأيضاً:

إنني أقيد بالمأثور راحلتي ولا أبالي وإن كنا على سفر

فقوله أُقيد المأثور تمثيل بديع، والمأثور هو السيف الذي فيه أثر.

*** النسخ:**

وقد أخذ هذا المصطلح من نسخ الكتاب وبدل على أخذ الكلام كلاماً تاماً بلفظه ومعناه "أما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعاً، أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ؛ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب(٤٦)، وعلى ذلك ضربان:

الأول: وقوع وقوع الحافر على الحافر كقول امرؤ القيس:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وكقول طرفة:

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

الثاني: وهو الذي يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ كقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الفناء:

أيما طولى والسديجي هبه وما قصبات السيف إلا لمعبد

وقد عرّفه بعضهم "النسخ هو أن يتفقا لفظاً ومعنى بالقصد وهو على ضربين:

إحداهما: أن يتفق في تمام الكلام ويسمى المصالتة.

ثانيهما: أن يختلفا في يسير في اللفظ ويسمى الانتحال"(٤٧).

السرقات الشعرية:

يقول العلماء البلاغيون متفقون على أن الكلام إن كان يدل في عرضه على العموم- كالوصف بالشجاعة والسخاء والذكاء والبلادة- فلا يعد سرقة ولا استعانة ولا نحوها، ويعني هذا الكلام إذا كانت الألفاظ عامة متعارف عليها، التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية وهي أمور مشتركة فهي من وجهة نظرهم لا تعد سرقة فهذه الكلمات يشترك فيها الفصيح والأعجم والشاعر والمفحم، ومثال ذلك قول محرز بن المكبر الضبي:

كأن دنانيرا على قسماتهم وإذا كان قد شق الوجوه لقاء

فهنا ذكر هيئات تدل على الصفة لاختصاصها بمن له صفة كوصف الرجل حال الحرب بابتسام وسكون الجوارح وقلة الفكر ومن هنا الأخذ والسرقة نوعان:

١- ظاهرة

٢- غير ظاهرة.

الظاهرة: إن يؤخذ المعنى كله أما مع اللفظ كله أو بعضه، وأما وحده "فإذا كان المأخوذ كله من غير تغيير لنظمه فهو مذموم مردود؛ لأنه سرقة محضنة ويسمى نسخاً أو انتحالاً[٤٨]، ومثال ذلك قول عبد الله ابن الزبير:

إذا أنت لم تصف أخاك وجدته على طرف الهجران أن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفره السيف مرحل

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معز بن أوس المزني فأنشد كلمته التي أولها:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعد المنيه أول

حتى أتى عليها وفيها أنشده عبد الله، فأقتل معاوية على عبد الله وقال له، ألم تخبرني أنهما لك؟ فقال: المعنى لي واللفظ له، وبعد فهو أخي من الرضاعة، وأنا أحق بشعره.

فقد يحدث في السرقة أمور إحداهما:

النقل: وهو أن ينقل معنى الأول إلى غير محله.

والثاني: أن يكون معناه أشمل من المعنى الأول.

القلب: وهو أن يكون معنى الثاني نقيض معنى الأول سمي بذلك لقلب المعنى إلى نقيضه، ولهذا لا ينبغي على أحد أن يحكم على شاعر بالسرقة ما لم يعلم بالحال.

ومن أول من أشار إلى موضوع السرقات الشعرية، هو الجاحظ، وذلك في معرض حديثه عن التأثير بين الشعراء إذ يقول "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب بمجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً منه كمعنى الذي تنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أسقارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله يجحد إنه سمع بذلك المعنى قط وقال أنه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بالي(٤٩).

وكما ذكرنا سابقا فقد قسم البلاغيون السرقة إلى قسمين سرقة ظاهرة وسرقة غير ظاهرة، والآن سنبين أنواع كل قسم من هذه الأقسام:

*** السرقة الظاهرة:**

١- النسخ: ويقال له أيضا الانتحال وهو أخذ المعنى واللفظ معا أو أخذ المعنى ومعظم اللفظ من غير تغيير لنظمه وهو مذموم، وقد تم عرضه سابقاً بشكل مفصل.

٢- الإعارة أو المسخ: وهو أخذ المعنى واللفظ معا مع تغيير النظم أو أخذ المعنى وبعض اللفظ، فإذا كان من المأخوذ منه لاختصاصه بحسن النظم وقوة السبك أو الاختصار أو زيادة معنى فهو حسن ومقبول ومن ذلك قول بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالكيبات الفالك اللهج

ويقول سلم الساخر:

مـــن راقـــب النـــاس مـــات غمـــا وفـــــاز باللـــــذة الجـــــور

فالمعنى في البيتين واحد وبيت سلم أجود سبكاً وأحضر لفظاً، وقد شهد بستار لتلميذه سلم لهذا فقال: "ذهب والله بيتي فهو" أي بيت سلم" أحق منه وأعذب وإن كان المأخوذ دون المأخوذ منه في البلاغة فهو مذموم مردود"(٥٠).

٣- الإمام أو السلخ "وهو أحد المعنى وحده دون اللفظ، وهذا أدق أنواع السرقات مذهباً وأحسنها صورة" ويأتي على ثلاثة ألوان:

أولها: أن يكون الثاني أبلغ من الأول لحسن نظمه وجوده سبكه.

ثانيهما: أن يكون الثاني دون الأول فثي البلاغة وجودة السبك.

ثالثهما: أن يكون الثاني مثل الأول في البلاغة وجودة السبك وعندئذ يكون الفصل لصاحب الأول(٥١).

السرقة غير الظاهرة: فهي مقبولة بجميع أنواعها لما فيها من حسن التصرف وخفاء الأخذ وكلما كان الأخذ أشد خفاء كانت أولى قبولاً، لأنها عندئذ تخرج من سبيل الأخذ والاتباع إلى خير الاختراع أو الإبداع وهي عدة أمور:

١- أن يتشابه معنى الأول ومعنى الثاني دون نقل المعنى إلى محل آخر كقول الطرماح:

لقد زادني حب النفس وإنني بغيض إلى كل مرى غير طائل

وقول أبي الطيب:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

٢- النقل: هو أن ينقل معنى الأول إلى غير محله، كما في قول البحتري:

جلبوا وأسرقت الدماء عليهم محمرة فكأنهم لم يلبسوا

أخذه المتنبي فنقله إلى السيف فقال:

يبس الجيع عليه وهو مجرد عن غمده فكأنما هو معتمد

٣- أن يكون معنى الثاني أشمل من معنى الأول، كقول جرير:

إذا غضبت عليك بنو غيم وجدت الناس كلهم غضابا

وقول أبي نواس:

ليس على الله بمستكبر أم يجمع العالم واحد

فبيت أبي ناس أشمل؛ لأن العالم يشمل الأنس وغيرهم كالملائكة والجن وغيرها.

٤- القلب: هو أن يكون المعنى الثاني نقيض معنى الأول وسمي بالقلب؛ لأن الشاعر يأخذ المعنى ويقلبه إلى نقيضه كما في القول:

أجـــد الملامـــة فـــي هـــواك لذيـــذ حبـــا لـــذكره فليلمنـــي اللـــوم

أخذ ابو الطيب هذا المعنى وعكسه فقال:

أحبـــه وأحـــب فيـــه الملامـــة أم الملامـــة فيـــه مـــن أعدائـــه

فالبيت الأول يقول إن الملامة محبوبة؛ لأنها تذكره بالحبيب والمثنى أنكرها وكرهها؛ لأنه لا يستطيع أن يحبه ويحب أعداءه أن الملامة لا تكون إلا من أعدائه.

٥- أي يأخذ بعض المعنى ويصف عليه زيادة تحسنه وتحمله كقول الأخوة:

وتـــرى الطيـــر علـــى آثارنـــا رأي عـــين ثقـــة أن ســـمتار

وقول أبي تمام:

وقـد حللـت عقـاب أعلامـه صـخى نعهقبـان طيـر مـن الـدماء نواهـل

أقامـت مـع الريـات حتـى كأنهـا مـن الجبـين غـلا أنهـا لا تفاعـل

فأبو تمام قد جعل الطيور "في الدماء نواها" وتلك زيادة حسنت المعنى وقررته فضرر الأفواه واثقة بأنه ستطعم أنما طيور أي تمام فإنها تهل من دماء الأعداء، ثم جعلها قائمة مع الرايات حتى كأنها من الجبين غلا أنها لا تقاتل لأن مهمتها أن تنهل من الدماء وتلك زيادة أخرى ازداد بها المعنى حسناً وبهاءً.

رأي الجرجاني في السرقات:

قال الجرجاني وهو أصح مذهباً وأكثر تحقيقاً من كثير ممن في هذا الشأن "وليس أعد من جها بشدة الكلام، ولا من نقاد الشعر حتى غير بين أصنافه واتسامه ونحيط علما تربية ومنازله فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإلمام من الملاحظة وتعرف به من الآخر وبين المختص الذي جاره المبتدئ فملكه واجتباه السابق فاقتطفه(٥٢)"

وملخص قول الجرجاني في أنه ليس من كبار العلماء الذين يستطيعون الفصل في أمر السرقات وتمييز أصنافها ومنازلها وتمييز المشترك الذي لا يعد سرقة والمبتذل الذي ليس لأحداث دون آخر. والمختص الذي تمتلكه المبتدى والسابق إليه.

قيم تكوين السرقة؟

السرقة إنما هي في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، ويقول القيرواني "واتكال الشاعر على السرقة ولادة وعجز وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات"(٥٣).

وقال بعض الحذاق المتأخرين من أخذ معنى بلفظة سارقاً فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو يقلبه عن وجهة كان ذلك دليل سلامته.

وأما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم وسماه "كتاب المنصف".

ويصف ابن رشيق في كتابه العمدة بعض أنواع السرقات منها ويتحدث عنها جملة فيقول:

الاصطراف: وهي أن يعجب الشاعر بين من الشعر فيصرفه إلى نفسه فإن الاصطراف صرف عليه على جهة المثل فهو اجتلاب واستلحاق، وإن ادعاه جملة فهو انتحال، ولا يقال منتحل إلا لمن ادعى شعراً لغيره وهو يقول الشعر وإما إن كان لا يقول الشعر فهو مدع غير منتحل.

وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة الإعارة والغصب فإن أخذه هبة فتلك المرادة، ويقال الاسترفاد فإن كانت السرقة فمنها دون البيت فذلك هو النظر والملاحظة وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر، ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام فإن حول المعنة من نسيب إلى مديح فذلك المرادة، ويقال الاسترفاد فإن كانت السرقة منها دون البيت فذلك هو الاهتدام، ويسمى أيضا النسخ فإن تساوى المعانان دون اللفظ وخفي الأخذ فذلك النظر والملاحظة، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام فإن حول المعنى من نسيب إلى مديح فذلك الاختلاس، ويسمى أيضا نقل المعنى فإن أخذ بنية الكلام فقط فتلك الموازنة فإن جعل مكان كل لفظة ضدها، فذلك هو العكس فإن صح

الشاعر لم يسمع يقول الآخر، وكان في عصر واحد– فتلك المتواردة وإن ألف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق وبعضهم يسميه الاجتلاب والتركيب.

ويأتي الاصطراف على ضربين في الشعر:

"أحدهما: الاجتلاب وهو الاستلحاق أيضا كما تقدمت.

الآخر: الانتحال وقد تم تعريفه سابقا"(٥٤).

*** المرافدة:**

ويعني أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له والشاعر يستوهب البيت والبيتين والثلاثة من ذلك، وإذا كانت شبيهة بطريقته ولا يعد ذلك عيباً؛ لأنه يقدر على عمل مثلهان ولا يجوز ذلك إلا للحاذق المبرز.

ومن الأمثلة على المرافدة أن جريراً قال لذي الرمة: أنشدني ما قلت لسهام المرأة فأنشده قصيدته:

نبت عيناك عن طلل بحزوي محلة الريح وأمتنع القطار

فقال: ألا أعنيك؟ قال: بأبي وأمي، قل له:

يعد الناسبون إلى تميم بيوت المجد أربعة كباراً

يعدون الرباب وآل سعد وعمراً ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرئي لفوا كما الغيث في الدرسة الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده فلما بلغ هذه قال: جيد أعده، فأعاده فقال كلا والله، لقد نملكهن من هو أشد لجبين، منك، هذا شعر ابن المراعة واسترفد هشام المرئي جريراً على ذي الرمة فقال الأبيات(٥٥):

عاش عدياً لؤمها ما تحبه من الناس ما شت عدياً ضلالها

فقل لعدي تستعن بنسائها على فقد أعيا عدياً رجالها

إذا ألزم قد قلدت قوامك رمة بطيبئآ بايدي العاقدين خلالها

ويقال إن نابغة بن ذبيان استرفد زهيراً فأمر ابنه كعباً فرفده.

*** التلميح:**

وهو نوع من أنواع البديع في البلاغة، وقد عرّفه علماء البيان "هو أن يشير المتكلم في أثناء الكلام ومعاطف شعره أو خطبه إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة فيلمحها فيوردها لتكون علامة في كلامه[٥٦]، وبذلك يحصل الكلام على لطافة وبراعة رائعة".

وعرفه كذلك بـ " أي يشير الشاعر أو الناشر إلى قصة أمثل أو شعر دون أن يورد ألفاظه".

ومثال على الإشارة إلى قصة قول أبي تمام:

فـــردت علينـــا الشـــمس والليـــل راغـــم بشـمس لهـم مـن جانـب الحـذر تطلـع
فـــــوالله مـــــا أدري أأحـــــلام نـــــائم ألمـت بنـا أم كـان فـي الركـب بوشـع

وقد أشار أبو تمام إلى استعطاف موسى – عليهما السلام– الشمس عند الغروب حين قاتل الجبار وخاف هجوم الليل.

ومثال على الإشارة على الشعر قول الحريري "والله لطالما تلقيت الشتاء بكافاته وأعددت له اللهب قبل موافاته، يريد قوال ابن سكرة:

جـــاء الشـــتاء ومنـــدي مـــن حوائجـــه سـبع إذا القطـع عـن حاجاتنـا حبـا
كـــن وكـــيس وكـــانون وكـــأس ظـــلاً بعـــد الكبســـاب نـــاعم وكـــا

الهوامش:

١. سلطان، منير، التضمين والتناص، منشأة المعارف، الاسكندرية، ٢٠٠٣، ص٢٢.
٢. الأزهري، معجم ، مادة "ضمن".
٣. الجوهري، معجم الصحاح، مادة "ضمن".
٤. ابن منظور، لسان العرب، مادة "ضمن".
٥. الفيروز أبادي، معجم المحيط، مادة "ضمن".
٦. الزبيدي، قاموس ، مادة "ضمن".
٧. الوسيط، مادة "ضمن".
٨. الهاشمي، نقلا عن، معطي، يحيى، البديع في علم البديع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م، ص١٣٨.
٩. نقلاً عن معطي يحيى، ص ١٣٩.
١٠. نقلا عن معطي يحيى، ص ١٣٩.
١١. القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجليل، ١٩٨١م، ص٨٦.
١٢. الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، القاهرة، دار النهضة، ص٢٠٠.
١٣. المرجع السابق، ص ٢٠٤.
١٤. المرجع السابق، ص ٢٠٥.
١٥. الطيبي، شرف الدين الحسين، البنيان في البيان، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م، ص٢٠٠-٢٠٢.
١٦. قيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البديع، دراسة تاريخية، القاهرة، دار العلم الثقافية، ١٩٩٨م، ص٢٧٠.
١٧. المرجع السابق، ص٢٧٢.
١٨. الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص٤١٦.

١٩.الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القاهرة، دار النهضة، ص ٢٠.
٢٠.سلطان، منير، التضمين والتناص، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٩م، ص ٢٢.
٢١.حسن، أحمد، التضمين في العربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م، ص ٣٥.
٢٢.المرجع السابق، ص٢٣.
٢٣.المرجع السابق، ص ٢٤.
٢٤.المرجع السابق، ص ٢٥.
٢٥.سلطان، منير، التضمين والتناص، دار الكتب العلمية، ١٩٨٩م، ص٢٦.
٢٦.المرجع السابق، ص٢٦ – ص٢٧.
٢٧.حسن، أحمد، التضمين في العربية، القاهرة، دار النهضة العلمية، ١٩٨٩م، ص٨.
٢٨.المرجع السابق، ص٨.
٢٩.المرجع السابق، ص ٢٨.
٣٠.المرجع السابق، ص ٩١ – ٩٢.
٣١.المرجع السابق، ص ٩٣.
٣٢.المرجع السابق، ص ٩٢.
٣٣.المرجع السابق، ص ٩٣.
٣٤.المرجع السابق، ص ٩٣.
٣٥.المرجع السابق، ص ٩٣.
٣٦.سلطان، منير، التضمين والتناص، ص ٢٥.
٣٧.القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، ١٩٨١م، ص ٢٧٧.
٣٨.طبانة، بدوي، علم البيان– دراسة تاريخية فنية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م، ص ٩٤.
٣٩.المرجع السابق، ص ٩٥.
٤٠.المرجع السابق، ص ٩٥.

٤١.مطلوب، أحمد، البلاغة عند السكاكي، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٦٤م، ص٢٤.
٤٢.خفاجي، محمد عبد المنعم، نقد الشعر لقدامة بن جعفر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٤٨م، ص٩٥.
٤٣.الأثير، ضياء الدين، المثل السائر من أدب الكتاب الشاعر، القاهرة، دار النهضة، ص٢٣٠.
٤٤.مطلوب، أحمد، البلاغة عند السكاكي، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٦٤م، ص٢٤.
٤٥.خفاجي، محمد عبد المنعم، نقد الشعر لقدامة بن جعفر، بيروت، دار الكتاب العلمية، ١٩٤٨م، ص٩٥.
٤٦.الأثير، ضياء الدين، المثل السائر من أدب الكتاب الشاعر، القاهرة، دار النهضة، ص٢٣٠.
٤٧.الطيبي، شرف الدين الحسين، التباين في البيان، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٢٠٩
٤٨.القيروني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت، دار الكتاب العلمية، ١٩٨٥، ص٢١٢.
٤٩.فيود، بسيوني، عبد الفتاح، عبد البديع، دراسة تاريخية، القاهرة، دار العلم، ١٩٩٨م، ص ٣٢٣.
٥٠.فيود، بسيوني، عبد الفتاح، عبد البديع، دراسة تاريخية، القاهرة، دار العلم، ١٩٩٨م، ص ٣٢٤س.
٥١.المرجع السابق، ص ٢٢٣.
٥٢.المرجع السابق، ص ٩٦.
٥٣.المرجع السابق، ص ٩٦.
٥٤.المرجع السابق، ص٢٧٩.
٥٥.العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت، دار الكتب العلمية، ص١٧٠.
٥٦.المرجع السابق، ص ١٧٠.

قائمة المصادر والمراجع

١- الحلبي، نجم الدين إسماعيل، جوهر الكنز، الاسكندرية، منشأة المعارف، ٧٣٧هـ.
٢- الطيبي، شرف الدين الحسين، التبيان في البيان، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.
٣- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، بيروت، دار الكتب العلمية، الجزء الثالث.
٤- القيرواني، الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبديع، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.
٥- القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، ١٩٨١م.
٦- الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدبه ونقده، دار الجيل، ١٩٨١م.
٧- الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٨- خفاجي، محمد عبد المنعم، نقد الشعر لأبي الفرج أمه بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٤٨م.
٩- طبانه، بروي، علم البيان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م، الطبعة الرابعة.
١٠- فيّود، بسيوني عبد الفتاح، علم البديع، القاهرة، دار العلم الثقافية، ١٩٩٨م.
١١- مطلوب، أحمد، البلاغة عند السكاكي، بغداد، منشورات مكتبة الهضبة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
١٢- معطي، يحيى، البديع من علم البديع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م.